بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة العربية

اشتد الصراع الأيديولوجى ، وازداد حدة فى العالم الاسلامى بعد الحرب العالمية الثانية ، اذ عندما لاح فى الأفق أن الاستعمار القديم قد أدار ظهره ، وأن قواته تستعد للرحيل عن المناطق ، التى احتلتها سنين طويلة ، ظن أصحاب الأيديولوجيات ، أن الفرصة سانحة للانقضاض على السلطة ، وتثبيت عقيدتهم فى المجالات المختلفة .

تبلور هذا الصراع ، فاتخذ شكلين رئيسيين ، أحدهما تيار يمينى والآخر يسارى ، واستمر الكفاح بينهما مدا وجزرا فترة من الزمن ، ولكن سرعان ما أصيب التيار اليمينى بنكسة أخرجته عن ميدان الصراع ، وكان السبب فيها عدة عوامل منها :

١ ــ نقص خبرة قادته ، وقلة تجاربهم فى المجال السياسى .

٢ ــ نشوء الخلاف بينهم ، ويرى بعض الخبراء أن هذه الظاهرة كانت نتيجة لتسرب عناصر انتهازية ، الى داخل صفوف القيادة ، ظنا منها أن هذا التيار أصبح قاب قوسين أو أدنى من تولى السلطة .

٣ ــ اصطدامهم اصطداما مباشرا مع القوى الوطنية الجديدة التى تسلمت السلطة من الاستعمار ، وهى بطبيعة الحال لا تميل الى هذا التيار نتيجة تأثير موجات دعائية أجنبية .

٤ ــ اجماع المعسكرين ، الشرقى والغربى على ضرورة القضاء على التيار اليمينى ، لأن كلا منهما يجد فيه خطرا على وجوده فى منطقة العالم الاسلامى .

خلت الساحة من اليمين ودعاته ، فتهيأ الجو للبسار ، فتغلغل بين صفوف الجماهير ، ولكن لم يرجع انتشار ايديولوجيته بين شعوب العالم الاسلامى الى هذا السبب فقط ، بل كان هناك عامل آخر ــ وهو عامل رئيسى على ما أعتقد ــ ، ألا وهو طبيعة الظروف الدولية ، التى نشأت عقب الحرب العالمية الثانية ، فقد هيأت تلك الظروف المجال للشيوعية ، ودعاتها ليلعبوا دورا نشطا فى الساحة الاسلامية سياسة وتوجيها ، اذ تولى السلطة شباب ، رأوا من الوطنية معاداة المعسكر الذى قاست منه الشعوب أيام الاستعمار ، غير أن قوتهم لم تكن كافية للوقوف أمام

دول كبرى ؛ فاستعانوا بالمعسكر الشرقى ؛ فلبى الطلب بسرعة ؛ لينشر أيديولوجيته بين شعوب العالم الاسلامى . الذى كان — حتى ذلك الحين — منطقة مغلقة فى وجهه .

فتح الباب . وأعطيت له اشارة الضوء الأخضر ؛ فدخل بمساعداته العسكرية والفنية ؛ ثم تغلغل حتى وصل الى مراكز التوجيه والاعلام ، فركز نشاطه فى هذا المجال . ليحول المجتمع الاسلامى الى اعتناق أيديولوجيته وسلك فى ذلك طرقا ملتوية — تجنبا لرد فعل الجماهير ، التى تعتقد أن الشيوعية تحارب الأديان — متخفيا وراء شعارات وطنية ، ومع ذلك لم يستجب له الا القليل ؛ فأوهم العامة أن الشيوعية لا تحارب الاسلام ؛ وكانت هذه مجرد مناورة تخفى وراءها الحقيقة الصارخة ، فالشيوعية كانت — ولا زالت ؛ وستظل — تحارب الاسلام ؛ فقد نشرت الجمعية الاتحادية لنشر العلوم السياسية والفنية فى موسكو فى عام ١٩٦٨ م كتيبا(١) بقلم : « كليموفيتش » تحت عنوان : « الاسلام : نشؤه ومستقبله » جاء فيه :

« ان شعوب الاتحاد السوفييتى العائشين مع بعضهم بمودة أخوية ، قد تغلبوا على التأخر الاقتصادى والثقافى ؛ الذى كان مستوليا عليهم فى الماضى ؛ وأحرزوا تقدما اقتصاديا لم يسبق له مثيل ؛ وثقافة زاهرة شأن البلاد الاشتراكية . وقد تعبر أيضا المظهر الأدبى للشعب السوفييتى ؛ فأصبحت تعاليم « ماركس » و « لينين » العظيمة الخاصة بطبقة العمال ؛ أساسا — لا ينقض — لفكرتهم عن الهيئة الاجتماعية . ولكن لا يمكن الانكار بأنه لا يزال راسخا فى ذهن بعض الناس بقايا من النظام الاستغلالى ؛ التى لا تلاءم المظهر التقدمى للشعب السوفييتى ، المستند على العلم والاختبار .

« ان محاربة هذه البقايا التى لا تختص بطبقة معينة من الشعب فى بلادنا هى جزء لا يتجزأ من التعاليم الشيوعية للعمال ؛ ولها أهمية عظمى فى وقت تتحول فيه تدريجيا من الاشتراكية الى الشيوعية . ومن ضمن هذه البقايا الخرافات الدينية المخالفة للعلوم .

---

(١) وزع هذا الكتيب فى كثير من بلاد العالم الاسلامى ، فقد أطلعنى أحد الطلبة فى جامعة أحمد بلو بنيجيريا على نسخة منه . وأخبرنى بأنه يباع فى العاصمة « لاجوس » .

« ويمثل **الدين الاسلامى** احدى هذه البقايا الدينية المحافظ عليها من قبل جزء من سكان جمهوريات آسيا الوسطى فى القوقاز ، والقفقاز ، وتاتارية ، وباشكيرية ، وكذلك فى بعض مناطق الجمهوريات السوفييتية الفيدرالية الاشتراكية الروسية .

وينتشر هذا الدين فى الخارج ، وعلى الأخص فى عدد من البلاد الآسيوية والافريقية » .

ولم يكتف « كليموفيتش » بهذا ، بل هاجم القـــرآن ، والسنة النبوية هجوما مباشرا حيث قال :

« يعتبر القرآن والسنة والشريعة كتب الاسلام المقدسة ، وقد ألفت هذه الكتب فى القرون الوسطى فى زمن سيادة الاقطاع ، وتبرز تعاليم هذه المؤلفات الجور الطبقى ، وظلم الشعوب المغلوبة ، وليست هذه المؤلفات الدليل الوحيد على الماضى الأليم ، اذ لا تزال مبادئها تطبق كقوانين فى البلاد التى تتخذ الاسلام دينها الرسمى »(١) .

ثم بين الموقف الحقيقى للشيوعيين فى الشرق فقال :

« وقد اختلف التقدميون الشرقيون فى آرائهم كليا مع تعاليم القرآن »(٢) . ورمى بالتأخر كل من يتمسك بالتعاليم الدينية :

« ويجب الملاحظة هنا بأن أى دفاع عن الأفكار الدينية ليس الا مجهودا لمعاضدة التأخر الاجتماعى ، الذى أصبح — أو على وشك أن يصبح — من ذكريات الماضى »(٣) .

وادعى أن الايمان بالله لا قيمة له فى المجتمع :

« ولا تتفق مع التقدم الفكرة القائلة بأن الاعتقاد بالله له قيمة فى الحياة الاجتماعية ، وأوضح لينين المعنى الحقيقى لهذه البيانات فقال :

« ان فكرة وجود الله كان مفعولها دائما ، اخماد الحس الاجتماعى ، وتبديل شىء حى بشىء ميت ، وما هى الا عبودية من أسوأ الأنواع ، ولم ترتبط فكرة الله الفرد بالمجتمع ، بل قيدت الطبقات المظلومة بالاعتقاد بالهية الظالمين » (ص ٩٣ مجلد ٣٥ من مؤلفات لينين)(٤) .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٦ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٩ .
(٣) المصدر السابق ص ٤٥ .
(٤) المصدر السابق ص ٤٥ .

ثم أفصح عن مراده ، ألا وهو بيان أن الاسلام يقف حجر عثرة فى سبيل نشر المبادىء الشيوعية :

« ويستنتج من دروس تاريخ ظهور الاسلام وماهيته الاجتماعية بأنه كغيره من الأديان الأخرى ، عبارة عن فكرة محافظة تناقض العلوم ، وتغل أيدى الناس عن النشاط والاقدام على العمل المثمر ، وتعارض نشر المبادىء السوفييتية الحيوية فى العالم ، أى « الماركسية » و « اللينينية » ، ويمكن نسب تلك المميزات الى جميع عقائد وطقوس الاسلام ، وأعياده العديدة ، وصيامه وزياراته للأماكن المقدسة ، وعبادة الأئمة وغيرها من العادات • وتتعلق جميع هذه القواعد والعادات ببقايا الآراء الشرقية القديمة ، القائلة بعزل الانسان عن الانسان ، والمشبعة بالفكرة الضالة ، المضرة بأن الله هو لذى يضمن برحمته حياة هادئة ، ومرفهة للبشر ، لا اجتهاد الانسان »(١) •

وأوضح أن الشيوعية مستمرة فى كفاحها ضد الدين :

« ويستمر الحزب فى الكفاح ضد المعتقدات الدينية(٢) باعتبارها منافية للفكرة العلمية عن الدنيا •

« ومن المستحيل احراز التقدم الحقيقى ، قبل التغلب على البقايا الدينية وغيرها من الآراء ، التى أصبحت بالية ، وكذلك النظريات التى تضلل ذهن الانسان •

---

(١) المصدر السابق ص ٤٩ •

(٢) ولهذا يطرد الحزب الشيوعى كل عضو ، يثبت أنه يحافظ على اقامة شعائر الاسلام ، فقد نشرت جريدة الأخبار القاهرية فى عددها الصادر فى ١٩٧٤/٧/١٧ م ما يلى :

« موسكو ـ رويتر : ذكرت الأنباء الصحفية ، التى وصلت الى موسكو اليوم أن عددا من الأعضاء العاملين فى الحزب الشيوعى بمنطقة قوقازية نائية ، قد طردوا من الحزب بسبب مشاركتهم فى الاحتفالات الدينية الاسلامية •

وجاء فى مقال نشرته صحيفة « زوريا فيتكا » بعددها الصادر يوم الجمعة الماضى ، أن عدد المؤمنين فى منطقة « أزهاريا » الواقعة على البحر الأسود ، بالقرب من الحدود التركية : قد تزايدوا بدرجة كبيرة فى العام الماضى • وذكرت الصحيفة أن مدير احدى المزارع الجماعية قد فصل من الحزب ، كما تعرض بعض رجال الحزب الآخرين لتأنيب قاس بسبب انخفاض مستوى الدعاية الالحادية ، التى يقدمونها بسبب مشاركتهم فى الطقوس الدينية •

« ان الغاء الدين ؛ الذى ما هو الا سعادة وهمية للناس ، عمل ضرورى لجلب سعادتهم الحقيقية »(١) • (صفحة ٤١٥ المجلد الخامس من مؤلفات ك • ماركس و ف • انجيلز الطبعة الثانية)(٢) •

ألا تدل هذه النصوص على أن الشيوعيين فى الشرق الاسلامى يناورون . ويلعبون بعقول الجماهير حين يدعون أن الشيوعية لا تحارب الدين ؟

أما دعواهم « التقدمية » ؛ فمغالطة أيضا ذلك أن ظروف القرن التاسع عشر — الذى ظهرت فيه دعـوة « ماركس » — الاقتصادية والاجتماعية . قد تغيرت الآن كلية ؛ فاذا نودى اليوم بتطبيق مبادىء « ماركس » كحل لمشاكل المجتمع فهى دعوة رجعية ؛ لأنها كانت لمعالجة مشكلة . لم يعد لها وجود الآن •

وقد وضح ذلك الأستاذ الدكتور محمد البهى فى كتابه : « تهافت الفكر المادى التاريخى »(٣) ثم قـال :

---

(١) أى سعادة تلك التى يعد بها ماركس المجتمع الشيوعى ؟
أهى التعذيب والارهـاب ؟
أم كبت الحريات ، واشاعة الرعب والفزع بين المواطنين ؟
أم هى الفقر والحرمان التى تعانيه الشعوب الخاضعة لنظام الحكم الشيوعى ؟؟؟

(٢) المصدر السابق ص ٥٢ •

(٣) رسم الدكتور صورة للمجتمع الأوروبى فى دول غرب أوروبا فى القرن التاسع عشر ، فبين أن رأس المـال كان يوجه السلطة العسكرية ، التى امتد سلطانها على مستعمرات فى افريقيا وآسيا •

وعلى امتداد سـنوات الاستعمار الغربى ، تكدست ثروة القـارتين الاقتصادية فى أوروبا ، وتحكم فيها رجال الصناعة فى البلاد الغربية ، ورجال المـال والتجارة الذين توسعوا فى الأعمال التجارية • وعندما دخلت الآلة مجال الصناعـة ، نافسـت العمـل اليدوى ، فتحول أصحابه الى أجراء لدى أصحاب الصناعة الآليـة الكبيرة •

تحول رأس مـال الصناعة — نتيجة المنافسة — فأصبح فى يد قلة من أصحاب رؤوس الأموال ، وبالتالى تجمعت لديهم الأرباح الواسعة :
من استعمار القارتين الافريقية والآسيوية •
وتسخير المواطنين فيهما فى خدمة الصناعة الأوروبية •

وأصبح هنا فى أوروبا الغربية ثراء فاحش ، يتصرف فيه عدد قليل من الأثرياء ، ووقف مد هذا الثراء عند هذه القلة من أصحاب رؤوس الأموال =

« ان كارل ماركس قد ربط تفكيره الفلسفى بأوضـــاع القرن التاسع عشر الاقتصادية ، والاجتماعية ، والعلمية ، ولذا فصلاحية اتجاهه فى حلول المشاكل يقصر عن أن يتجاوز هذه الأوضاع ، ويقصر عن أن يمتد الى القرن العشرين ؛ فيعالج مشاكلها •• واذا سودى اليوم فى المجتمعات الماركسية اللينينية فى شرق أوروبا ــ أو فى أى مجتمع يفرض فلسفة ماركس ولينين فى افريقيا وآسيا ــ بـ« التقدمية » فى نظام الحكم عن طريق التبشير بالقوة العمالية العالمية ، وأيضا ثورية الطبقة العاملة ، فذلك ينطوى على دعـــوة الى الرجـــوع بـ« التطور

= وكلما زاد ثراؤهم ، قوى نفوذهم فى لسياسة الدولية ، وازداد من عداهم فقرا وحرمانا ، وضعفا فى رعاية صحتهم ، وأحوالهم الاجتماعية •

كانت هذه هى مشكلة القرن التاسع عشر ، ورأى ماركس أن حلها يجب أن يكون :

(أ) فى مزيد من اثارة حقد العمـــال على أصحاب رؤوس الأموال •

(ب) وفى دعوتهم الى تكبيدهم الخسائر ، والحاق الضرر بأموالهم ، وصانعهم عن طريق الاضراب •

(جـ) وفى الدعوة الى الانقلاب ، والاطاحة بأصحاب رؤوس الأموال وبالنظام السياسى فى الحكم •

ولكن طرأ تقدم اجتماعى على المجتمع الصناعى فى الغرب فى القرن العشرين ــ وبالأخص فى بداية النصف الثانى منه ــ قلل كثيرا من الفجوة فى العيش والمتعة بالحياة ، والنظرة الى الانسان التى ساءت حاله على عهد فلسفة ماركس :

فارتفعت أجور العمال •

وزادت الخدمات العامة التى تقدم لهم •

وتحددت ساعات العمل اليومى والاسبوعى •

وأصبح لهم الحق فى الاجازات السنوية •

وزادت الرعاية الاجتماعية ، فتأمين ضد العجز والشيخوخة وفرص لتعليم أبنائهم فى المراحل المختلفة ••• الخ •

وكاد وضع العامل الحالى يجعل المصنع شركة بينه وبين صاحب رأس المـــال ، وليس بينهما فارق ، الا أن أحدهما يستخدم كل طاقاته فى الادارة ، والثانى يستخدمها فى الانتاج •

ان وضع العامل فى النصف الثانى من القرن العشرين يختلف تماما عن وضعه فى القرن التاسع عشر ، على عهد كارل ماركس ، فلا مجال اليوم لدعوته ، الا اذا رجعت عجلةالتاريخ الى القرن التاسع عشر ، أى فهى دعوة رجعية مضى زمنها (انظر : تهافت الفكر المـــادى التاريخى ص ١٥ ــ ٣٤) •

الاجتماعى » والتكنولوجى . والوقوف به عند حد القرن التاسع عشر ، حتى يمكن أن ينكشف الظلم فى استغلال العامل من صاحب العمل ، ويبدو البعد فى الهوة السحيقة فى وضع كل من العامل ، وصاحب رأس المال فى الحياة ؛ والشقاء والاستمتاع فيها ؛ وحتى يمكن أيضا أن ترى الحاجة الشديدة الى العمل اليدوى . وسيطرته على المجهود الانسانى فى مجالات الانتاج الصناعى على الأخص ، مع رفاهية أصحاب رؤوس الأموال ، دون أن يكون لهم أثر سوى أنهم يملكون المال .

« وعندئذ فقد يكون لفكر ماركس مكان فى حل ما بين العامل ، وصاحب رأس المال من مشاكل ؛ هى مشاكل الظلم والانحراف فى استثمار المال ..

« ان من التناقض أن تلتمس حلا ، كان بالامس لمشكل لم يعد له وجود اليوم ...

« ان ماركس ولينين يعيبان التمسك بالدين ؛ ويصفان التمسك به بأنه « رجعية » — أى رجوع الى الخلف والوراء — مع أن صلاحية الدين لم ترتبط بوقت معين ، ولا بمشاكل لا تتكرر ؛ اذ هو للطبيعة البشرية ، بما لها من خصائص أينما وجدت ، وفى أى وقت كانت ؛ وهدفه أن يحول دون الانحراف فى السلوك سواء فى المال ، أو فى العلاقات البشرية ؛ بينما فلسفتهما قد ارتبطت بمشاكل اقتصادية معينة ، وأوضاع معروفة ، خلقتها ظروف خاصة ، ليس لها طابع الاستمرار ، وهى ظروف القرن التاسع عشر والثورة الصناعية التى تبدلت تماما فى القرن العشرين .

« أفلا يوصف ذلك الذى ينادى بالماركسية اللينينية — وقد اختلفت الأوضاع والظروف الآن ، وذهبت تلك الأخرى التى حملت على الفكر الفلسفى الماركسى — بأنه رجعى ؟

« وأنه يريد أن يعيد عجلة تاريخ القرن العشرين الى القرن التاسع عشر(١) ؟

* * *

(١) تهافت الفكر المادى التاريخى ص ٣٤ ـ ٣٦ .

وكتاب « حقائق عن نظام الحكم الشيوعى »(١) من أهم الكتب — ان لم يكن أهمها — ، لأنه يبين حقيقة هذا النظام ، ويوضح لنا التناقض بين الأحلام التى ترسمها الدعاية الشيوعية ، وبين الواقع الأليم الذى يعيش فيه مواطنو الدول ، التى تطبق الأيديولوجية الماركسية ، نظاما فى الحكم والتوجيه ، ومما يدل على أهمية هذا الكتاب ، أنه ظهر منه ثلاث عشرة طبعة باللغة الألمانية فى الفترة من عام ١٩٥٥ م الى عام ١٩٦٢ م ، بلغ مجموع ما وزع منها ١٤٦ ألف نسخة ، فقد اهتم به القراء اهتماما ، قل أن يناله كتاب فى القرن العشرين ، وذلك لأهمية القضايا التى عالجها .

ويجب على كل من يواجه التيار الشيوعى ، البراق فى مظهره ، الاطلاع عليه ، ليعرف الحقيقة واضحة ، فهو بقلم شيوعى أصيل هو : « فولفجانج ليونهـار » نشأ فى أحضان الشيوعية ، اذ كان يبلغ من العمر ثلاث عشرة سنة عندما غادر ألمانيا — منفيا — مع أمه متوجها الى موسكو ، فتربى فى مدارسها ، ودرس المذهب الماركسى ، والتحق بمنظمة الشباب فى الحزب الشيوعى ، وتدرج فيها حتى وصل الى مراكز القيادة حيث عاد — بعد الحرب العالمية الثانية — مع أول فوج الى ألمانيا ، ليتصدر مراكز التوجيه والقيادة ، لكنه ما لبث أن ضاق ذرعا بالدكتاتورية الشيوعية ، فهرب ، وسجل أحاسيسه ، واتجاهاته الفكرية ، فى هذا الكتاب ، وفى بعض تعبيراته عن هذا التحول يقول :

« لقد حاولت — وأنا مدرك ما أقدمت عليه تمام الادراك — أن أقدم صورة المقابلات والمناقشات ، و لأحداث ، والتجارب التى عشتها ، كما رأيتها آنذاك ، وتصورتها ، وكما شعرت بها ، وفكرت فيها .

وأعتقد أن القارىء سيفهم من خلال هذا كله ، معنى الكفر بمذهب « ستالين » بالنسبة لانسان تربى على هذا المذهب ، فهو حكم فى قضية

---

(١) العنوان الأصلى للكتاب هو : « الثورة تطرد أبناءها » ، فغيرته الى أنه كان ابنا من أبناء الثورة ، فضاق ذرعا بالاجراءات التى تنفذها السلطة باسم الشيوعية ، فهرب منها ، ووصف هروبه بأن الثورة هى التى طردته ، « حقائق عن نظام الحكم الشيوعى » لأن المؤلف نظر الى الموضوع من ناحية اذ لم تحقق أمله فيها ، أما العنوان الذى اخترته فيرمز الى أن ما ورد فى الكتاب هو بيان وشرح لطبيعة النظام الشيوعى ، على لسان شيوعى .

الشك ، التى اعترتنى سنين طويلة . وسبب لى من الآلام ، والمضايقات ما ناء به كاهلى .

« لقد كان صراعا داخليا بين الضمير المتألم ، والمبررات التى تحاول تهدئته ، ولكن عندما وصل المد والجزر بين الطرفين الى ذروته ، أغلق باب التراجع ، وعجزت المبررات عن كبح جماح صاحب هذا الضمير عن التحرك تجاه الحد الفاصل — وان كان يعانى فى أثناء ذلك من صراع داخلى حاد — الذى يصل من يعبره الى تصور العالم الحر ، عالم لا يسيطر عليه مذهب ستالين »(١) .

وليس كفره بالنظام السوفييتى حالة فردية ، بل هى ظاهرة عامة لدى كثير من الشبان الذين اعتنقوا هذه الأيديولوجية ، أملا فى الوصول الى جنة على هذه الأرض ، فاذا هى عذاب وحرمان ، فكفروا بها وعارضوها :

« استمرت عضويتى فى هذه المنظمة السوفييتية (يعنى منظمة الشباب) ست سنوات كاملة ، اعترتنى أثناءها موجات من الشكوك فى نظم وتوجيهات الحياة السياسية فى الاتحاد السوفييتى ، وكنت أعتقد أننى الوحيد ، الذى يعتنق هذه الأفكار ، التى تعتبر زندقة ، وكفرا بالنظام السوفييتى ، لكنى تبينت بعد مدة طويلة — عندما أنشأت صداقات حميمة مع كثير من الشبان ، وارتفعت الكلفة بيننا ، فتحدثنا بصراحة — أننى لم أكن وحدى الذى يعتنق مثل هذه الأفكار .

« وضحت الأمور شيئا فشيئا — وأنا متأسف ، اذ اضطرتنى الظروف الى عدم ذكر شىء ، أو وصف قد يفهم منه توضيحا لمن أعنيهم ، حتى لا أعرضهم للخطر ، وهم اليوم فى مناصب عليا — عندما التقيت بالكثير من الشباب المعارض ، اعترف لى أحد هؤلاء ، بأنه لا يؤمن بالأيديولوجية التى تعتنقها الدولة ، وتعرفت على آخرين ، كانوا ماركسيين ، ولينيين ، اعتنقوا تعاليم ماركس وقدسوها ، أما اليوم فيقفون مع الجبهة المعارضة للنظام فى كثير من المسائل والمبادىء الأساسية »(٢) .

ويكشف النقاب عن التناقض فى المذهب الشيوعى ، بين الدعاية

---

(١) المؤلف ص ٤ — ٥ . (٢) المؤلف ص ٨٢ .

والتطبيق ، اذ تعد الشيوعية بازالة الطبقات ، فى حين أن الطبقية موجودة فى نظامها ، فالحكم مقصور على طبقة معينة لا يتعداها :

« فالطبقة البيروقراطية الحاكمة ، التى تكونت منذ نهاية العشرينات ، وثبتت سلطتها بحركة التطهير ، التى امتدت من عام ١٩٣٦ م حتى عام ١٩٣٨ م ، والتى أطاحت بـ« المجموعة القديمة » ، بدأت هذه الطبقة الآن فى عام ١٩٤٠ م فى اتخاذ وسائل احتكار السلطة ، ومنع دخول « الطبقات الأخرى » لمشاركتها فى الحكم ، وبهذا خطت الخطوة الأولى نحو جعل السلطة ، والامتياز الطبقى وقفا على أبنائهم ، يرثونه من بعدهم »(١) .

ووضحت ظاهرة الطبقية أيضا فى معرفة أخبار الدولة ، فقد فرضت الرقابة الشديدة على تسرب الأخبار الى الجماهير ، فهم لا يعلمون شيئا عن الأحداث التى تقرر مصيرهم ، اللهم الا النذر اليسير ، فاذا علا الفرد درجة فى سلم الطبقات ، انكشفت له أسرار أكثر ، ونتج عن ذلك حرص كل واحد على توطيد علاقة بينه وبين من يطلعون على ما يجرى خلف الكواليس :

« نشأ عن طريق تقسيم الناس الى درجات ، بالنسبة للحصول على معلومات ، نوع من الشعور بضرورة الانتماء الى مجموعات لا تنفصل عن مراكز السلطة فى الاتحاد السوفييتى ، ومما لا شك فيه أن الالتفاف حول شخصيات بارزة فى الحزب هام جدا . وخاصة فى الاتحاد السوفييتى ، حيث توجه جميع وسائل الاعلام ، من صحافة واذاعة ، وليس لجماهير الشعب أى منافذ للأخبار الا النذر اليسير ، أى لا يذاع الا ما لا يزعج السلطة الحاكمة »(٢) .

ومن مظاهر الطبقية أن أعضاء الحزب لا يتحملون ما يقاسيه الشعب اذا أصيب الوطن بكوارث ، أو مر بأزمات ، بل يحصلون على كل ما يريدون ، ولو كان الشعب يموت جوعا ، يبدو ذلك فى وصف المؤلف بؤس الحياة فى الأحياء القديمة وبيان طبيعة حياة القادة فى الفنادق الكبيرة ، ثم يعقب على ذلك قائلا :

« وبدا التباين شاسعا بين الجو فى هذا الفندق . وبين الأحياء

---

(١) المؤلف ص ١١٣ .

(٢) المؤلف ص ١٩٦ .

القديمة فى « كاراجندا » ؛ والأكواخ المبنية من الطين للاقطاعيين المنفيين ، ولا يمكن لعقل تصور امكان وقوعه ، لو لم يره فى الاتحاد السوفييتى »(١) .

وتعد الشيوعية — عن طريق أبواقها الدعائية — بالديمقراطية الشعبية ، فللأفراد حرية تامة — ان هى تولت السلطة — فى التعبير ، وابداء الآراء ؛ ولجميع أفراد الشعب حرية فى الانتخابات ، وفى اختيار ممثليه فى السلطة ؛ بل له الحرية أيضا فى توجيه دفة الحكم وفى التشريع ، وفى تحديد أهداف الدولة . ولكن الواقع يؤكد أن الدكتاتورية سمة من سماتها ، وتقديس الزعماء ، وعبادتهم ركن أساسى فى تكوين سلطتها . فلا حرية فى الآراء ، ولا فى الانتخابات ، ولا تسمح السلطة الشيوعية الحاكمة بحرية الاجتماعات ، والصحافة مقيدة فى مجتمعاتها ؛ تردد ما يقوله الزعماء ، فتموت القدرات الخلاقة ، بينما تعيش الطفيليات تصفق للزعماء ، ويكون فى ذلك قضاء على فاعلية المجتمع فى الخلق والابداع :

« ... وبكبت الحياة السياسية فى جميع أرجاء الدولة ، يزداد استرخاء الحياة عند السوفييت باضطراد مستمر ، فبدون الانتخابات العامة ، والحرية الاجتماعية ، وحرية الصحافة ، ونضال الآراء الحرة ، تموت الحياة فى كل مؤسسة عامة . وتصبح حياة ظاهرية ، تكون البيروقراطية فيها هى العنصر الوحيد الذى يعمل ، فتجمد الحياة العامة تدريجيا ، ويحكم ويوجه فيها حفنة من زعماء الحزب المستوقدين نشاطا ، الذين تستولى عليهم مثالية لا حد لها ، وتقود حفنة من بينهم — يتمتعون بذكاء خارق — جماهير العمال من وقت لآخر الى المؤتمرات للتصفيق لخطب الزعيم ، وللتصويت بالاجماع على القرارات التى تعرض عليهم ، وفى الحقيقة هى مجموعة نفعية ، وهو ديكتاتور لا شك فى هذا ، ولكنه ليس ديكتاتور البوليتاريا ، بل ديكتاتور حفنة من السياسيين »(٢) .

ولم يقتصر أثر الديكتاتورية الشيوعية على سلب الأفراد حريتهم ، بل سلبهم الطمأنينة ، فأشاع الرعب والهلع فى صفوفهم ، ففقدوا القدرة على اختيار الطريق الذى يحميهم من جبروت السلطة وبطشها :

---

(١) المؤلف ص ١٧٤ . (٢) المؤلف ص ٥٧١ .

« انقلبت موازين العقل واختلت قواعد المنطق ازاء هذه الأحداث ، اذ من المعروف أن الذين يعيشون فى ظل الديكتاتورية ، ويقومون بنشاط ضدها ، يحاولون بشتى الطرق انكار هدا أمام المحقق — عندما يساقون بتهمة عدم الولاء للسلطة الحاكمة — ويسلكون كل سبيل يبرهن على أنهم برآء من هذه التهمة ، حتى لا يقع عليهم العقاب الصارم ، ولكن فى الاتحاد السوفييتى يفكر المرء فى حلق قصة طويلة خيالية تدينه ، يقولها أمام المحقق اذا ما اعتقل ، على الرغم من أنه لم يرتكب شيئا ضد نظام الحكم »(١) .

لأنه اذا لم يعترف سيوقع عليه لعقاب الصارم . فليختلق قصة يكون من شأنها ، ايهام المحقق أن عقوبة ما ارتكبه من أعمال ضد السلطة ، أخف نوعا من الأحكام الصارمة . وهكذا يعترف الأبرياء بارتكاب أعمال لم يرتكبوها ، أملا فى تخفيف العقوبة .

ولا يدين الشيوعيون بالولاء لأوطانهم ، بل هواهم مع الاتحاد السوفييتى — أو مع الصين — ينفذون ما يرسم لهم ، فهم كقطع الشطرنج ، صورهم فى الأوطان . أما محرك تلك الصور فهو فى موسكو أو بكين ، اقرأ معى هذا الحوار الذى دار بين المؤلف وبين أحد زعماء الحزب الشيوعى الألمانى . حين ثار المؤلف على ربط ألمانيا الشرقية بعجلة الاتحاد السوفييتى ، ونادى بالمساواة بينهما :

« ولكن يا « فولف جانج » ! فلنقف على أرض الحقيقة العارية ! ما معنى المساواة هنا ؟

أعرنى انتباهك ! فالنضال الذى انتشر فى العالم ، هو بكل أبعاده لعبة شطرنج كبيرة » ...

وأشار بيده الى لوحة الشطرنج .

« ... يوجد أبيض وأسود على هذه اللوحة ، ويواجه اللاعبان أحدهما الآخر بأشكال مختلفة من قطع الشطرنج ، تختلف فيه كل قطعة عن الأخرى باختلاف شكلها . وطريقة حركتها على اللوحة . ولكن تحريك هذه القطع لا يمكن أن يكون الا من المركز ، وهذا المركز هو موسكو فقط ... يجب أن نقترب من الموضوع مجردين من أى اتجاه ، فلست

---

(١) المؤلف ص ٤٢ .

قياديا جديدا فى الحزب • هل لاحظت مرة شيئا خاصا فى سمات الاتحاد السوفييتى ، واتحاد الجمهوريات السوفييتية ؟

لم أفهم بسرعة ، ماذا يريد بهذا السؤال !

« لا يظهر مفهوم روسيا هذه السمات • وليس هذا من باب المصادفة ••• وبهذا مهد الطريق للبلاد التى تتحول فيما بعد الى الاشتراكية للانضمام لهذا الاتحاد » •

« هل تعتقد أننا — اذا وصلت بلاد الديمقراطية الشعبية ، وفيما بعد المنطقة الألمانية أيضا الى أسس الاشتراكية — نستطيع أن نعيش كدولة مستقلة ، لا ترتبط بالاتحاد السوفييتى ؟

يجب أن نمارس سياسة واقعية فى هذه الأشياء • لا نستطيع هنا — فيما بيننا — أن نتحدث بصراحة ••• من الممكن — لا أقول يجب أن يكون هذا — أن تنضم بلاد الديمقراطية الشعبية فيما بعد — كجمهوريات جديدة — الى اتحاد الجمهوريات السوفييتية الشعبية • وطبعا لن نقول هذا اليوم ، ولا ينبغى أن تذكر ذلك لأحد اطلاقا ، ولكن يجب أن تعلم ذلك على الأقل •

« هذه هى الحقائق ، وليست المناقشة على أسس متساوية بين البلاد الاشتراكية »(١) •

وأكتفى بهذه المقتطفات لأترك القارىء يعيش مع أحداث الكتاب كاملة ، كى تتضح أمامه طبيعة نظام الحكم الشيوعى ، حتى لا ينخدع اذا ما سمع أبواق الدعاية الشيوعية تبنى له قصورا خيالية ، لا صلة لها بالواقع المر •

ويجب على كل مسلم — بل على كل من يستطيع قراءة العربية ، أيا كانت جنسيته ودينه — أن يقرأ هذا الكتاب ، حتى لا يقع فريسة للأخطبوط الشيوعى ، فيسلبه حريته ، وانسانيته •

كما يجب على المعاهد التى تخرج الدعاة أن تعيد النظر فى مناهجها ، فتقرر على طلبتها دراسة التيارات الفكرية الحديثة ، وفى مقدمتها الشيوعية — بما فى ذلك ما يجرى داخل البلاد التى تسيطر عليها —

---

(١) المؤلف ص ٥٩٨ •

والا فستخرج دعاة غير قادرين على القيام بمهمة الداعية فى هذا العصر الذى يتعرض فيه الاسلام لحملات متوالية من زنادقة العصر الحديث .

وهذا الكتاب هو من أحسن الكتب التى تزود الداعية بمعلومات ، هو فى أشد الحاجة اليها . لمواجهة هذا التيار الالحادى ، اذ هو يمده بحقائق تكون له :

ـ سلاحا عندما يواجه دعاة الشيوعية .

ـ ومصباحا يزيل به الغشاوة عن أعين الذين خدعوا بالدعاية الشيوعية البراقة ، كى يروا واقع المجتمع الشيوعى المر ، فيدركوا مدى افتراءات أبواق الدعاية الشيوعية فى العالم العربى والاسلامى .

ان أريد الا الاصلاح ما استطعت ، وما توفيقى الا بالله ...

كانو فى : ١٣ ربيع الأول ١٣٩٦ هـ
١٤ مـارس ١٩٧٦ م

محمـد عبد الغنى شـاهة

مقدمة الكتاب

كان مقـــررا فى ١٥ مارس سنه ١٩٤٩ أن ألقى محاضرة فى المعهـــد العالى للدراسات الاشتراكية ، التابع للحزب الاشتراكى الألمـــانى ، وفى قاعة المحاضرات جلس المشتركون فى الدورة وأمامهم قراطيسهم ينتظرون المحاضر يتجهون بأبصارهم كلمـــا بدت حركة تدل على قدومه ، طال انتظارهم الى أن بدا لهم أن لا فائدة .

أين الزميل ليونارد ؟

بحثوا عنى فى مسكنى الملحق بالمعهـــد ، ولمـــا لم يجدونى اضطروا الى اعلان الغـــاء المحاضرة ، فساور الشك بعضهم ، وتهامسوا :

هل ولى « وولف جانج » ؟

ثم كلفت سكرتيرة المعهـــد بالبحث عنى فى مسكنى فى برلين ، فلم تهتد هى الأخرى الى أى أثر يدل على . وسرعان ما أصبح الشك يقينا ، فتحدثوا بنبرة الواثق المتأكد :

« هرب وولف جانج ليونهارد » .

انتشر نبأ هروبى انتشار النار فى الهشيم ، فساد الارتباك جو المعهد ، وأصيب أعضـــاء الحزب بالدوار ، فقد كان الهاربون — حتى ذلك الحين — عددا قليلا من قادة حزب الاتحـــاد الاشتراكى الألمـــانى ، ومعظمهم كان عضـــوا فى الحزب الديمقراطى الاشتراكى(١) ، ولكن المســـألة الآن تتعلق بهروب مســـئول فى الاتحاد الاشتراكى الألمـــانى ، تربى فى موسكو ، فشرب لبن الشيوعية وتربى فى أحضانها . أضف الى ذلك أمرا آخـــر ، ذلك أن الهاربين السابقين ، كانت وجهتهم برلين الغربية ، وتحدثت عنهم صحافتها باسهاب ، أما هروبى فلم تذكر صحافة برلين الغربية عنه شيئا ، فهى كبرلين الشرقية ، كلاهما لا يعـــرف أين ذهبت ، وفى أى مكان أنزلت رحالى .

أين ذهب « ليونارد » ؟

هل حط رحاله فى يوغوسلافيا ؟

---

(١) أرغمت السلطات العسكرية الروسية أعضاء الحزب الديمقراطى الاشتراكى على الاندماج مع الحزب الشيوعى الألمـــانى فى حزب واحد يسمى حزب الاتحاد الاشتراكى الألمـــانى S. E. D. وكان ذلك فى ٢١ / ٤ / ١٩٤٦ م « ولا زال الحزب الوحيد الذى يحكم ألمـــانيا الديمقراطية حتى اليوم » (م - ش)

ترددت مثل هذه الأسئلة على الألسنة ، همسا ، ومن وراء حجاب ، ومر أسبوع وراء آخـر ، ولم يسمع أحد شيئا عن أخبار « ليونارد » فزادت التكهنات ، وانتشرت الشائعات .

وكنت أثناء ذلك كله فى بلجراد أكتب بيانا اذاعيا ، ومذكرة عن الأسباب السياسية التى دفعتنى الى الهروب من المنطقة الألمانيـة ، الواقعة تحت الحكم السوفيتى (ألمـانيا الديمقراطية) .

تركت برلين الشرقية فى ١٢ مارس ، ووصلت الى بلجراد فى ٢٥ منه ، بعد رحلة هروب ، حفت بالمخاطر ، واكتنفها العديد من المواقف المثيرة . واللحظـات الحرجة ، وبعد وصولى بأربعة أسابيع سجلت فى أحـد استوديوهات الاذاعة اليوغوسلافية حديثـا ، وضحت فيه معارضتى لأسلوب مكتب استعلامات الحزب الشيوعى ، فى التضـليل الاعلامى ، وتعاطفت مع الشيوعيين اليوغسلافيين ، الذين أعلنوا فى صيف عام ١٩٤٨م ، انفصـالهم عن موسكو ؛ رغبة فى تطبيق نظام يتفق وطبيعة مجتمعهم ، أى أنهم آثروا الاستقلال عن موسكو فى تطبيق الاشتراكية فى بلادهم .

لم يستطع زعماء حزب الاتحاد الاشتراكى الألمـانى — بعد أن أذيع حديثى مسـاء ٢٢ أبريل فى الاذاعة اليوغوسلافية باثنتى عشرة لغة ، ونشر فى اليوم التالى فى جميع صحف يوغسلافيا — أن يفرضوا السرية على نبأ هروبى ، اذ بعد أربعة أيام — أى فى ٢٦ أبريل ١٩٤٩ — نشرت الجريدة الرسمية لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمـانى قـرار اللجنة المركزية بطردى من الحزب .

ثم بدأت أعمال هيستيرية ، تسببت فى اصابة جو المعهد العـالى للدراسات الاشتراكية بحمى لم تهدأ نارها وتسكن ، الا بعد أن أصابت جميع أفراده ، اذ تعاقبت الاجتماعات ، ما انفض واحد الا ليجتمـع الآخـر . بحثا عن شركاء « ليونهارد » الهارب فى التفكير ، أو الشعور ممن لا يدينون بالولاء الكامل للماركسية ، فتعرض الدارسون لسلسلة من الاجراءات ، من استدعاءات للمثول أمام المحققين ، وأسئلة ، وتحقيقات على انفـراد محاولين الكشف عمن له ميول لمذهب « ليونهارد » الذى لم يعلن عنه الا عند هروبه ، ولم يقتصر الأمر عند هـذا الحد ، اذ صدر الأمر — بعد مدة قصيرة — باتخـاذ اجراءات أكثر صرامة ؛ ألا وهى تسريح جميع الذين درسوا على « ليونهارد » فى المعهـد ؛

وتوزيعهم على كليات أخرى ؛ ورفض كل المقترحات التى قدمتها — بصفتى مدرسا فى المعهد — للنهوض بالدراسة ، ورفع مستوى الدارسين ، مع تقرير ما يناقضها على طول الخط ؛ بصرف النظر عن مراعاة المصلحة العامة ؛ فعلى سبيل المثال :

كنت قد أوصيت أن يعين خريجو المعهد فى المعاهد العلمية . رفضت هذه التوصية وأرسل الخريجون الى الأقاليم ليخدموا فى أجهزة الحزب •

ألقى « هاينز ابراهام » — وهو مدرس فى المعهد تلقى دراسته فى الاتحاد السوفيتى ، وكان يطلق على نفسه « البلشفى المتعصب » — عدة محاضرات فى المعهد تحت عنوان « حول مسألة ليونهارد » •

تكرر عقد الاجتماعات لسماع النقد الذاتى من كل انسان كانت له بى صلة قريبة — أيا كانت نوع هذه الصلة — وتطرق الحديث أثناءها الى ذكر أحاديث السمر التى كانت تدور بيننا فى أمسياتنا ، سواء كان ذلك « نكاتا » أم حل ألغاز ، أو غير ذلك مما يدور عادة بين المتسامرين ؛ فقدذكروا — على سبيل المثال — أننى استعملت كلمة « كومينفورم » تلك الكلمة التى لا يتلفظ بها — فيما يزعمون — الا المحرض على العصيان ، لأن الاسم الرسمى هو « مكتب استعلامات حزب العمال الشيوعى »(١) فتسميتى له بـ « كومينفورم » كان — على حد قولهم — استهزاء به ، واستخفافا بالمؤسسات الشيوعية ؛ كانت مثل هذه الأشياء موضع نقاش فى اجتماعات استمرت ساعات ؛ لأنهم اتخذوها « دليلا على الموقف العدائى للحزب » وأكد خطباؤهم مرارا ، وتكرارا — لدرجة الملل — أن عدم التيقظ فى جهاز الحزب ؛ حال دون اماطة اللثام عن « ليونهارد » وبيانه على حقيقته فى الوقت المناسب •

حدث هذا كله ؛ لأنى كنت قد أعطيت منشورات الحزب الشيوعى اليوغوسلافى لبعض مدرسى ، وطلبة المعهد العالى ؛ ليطلعوا عليها ،

---

(١) أنشأته الأحزاب الشيوعية الأوروبية فى عام ١٩٤٧ م فى بلجراد — تحت زعامة الحزب الشيوعى السوفييتى — لتبادل المعلومات ، ولمساندة بعضها البعض ضد الرأسمالية الغربية ، انتقل مقره الى بوخارست فى عام ١٩٤٨ م ، بعدما وقع الخلاف بين يوغوسلافيا وروسيا ، ثم حل فى ابريل سنة ١٩٥٦ م • (م • شامة) •

وكان خوف زعماء حزب الاتحاد الاشتراكى الألمـانى من هذه المنشورات بالغا ؛ لأنهم كانوا مرغمين على السير فى فلك الاتحاد السوفيتى ، لدرجة أنهم كانوا يخشون غضب الروس اذ بدا أنهم قصروا فى احكام الحصار ضد الآراء التى تخرج عن هذا الخط .

كان غضب زعماء الاتحاد الاشتراكى له أسبابه ، فلاول مرة يهرب أحد قادة الحزب الذى قضى عشر سنوات فى الاتحاد السوفيتى ، نشأ فى جو شيوعى ، وتربى فى مدارس ماركسية ، وتدرج فى الخلايا الشيوعية حتى وصل الى مركز القيادة .

سوف أتحدث فى هذا الكتاب عن :

— تجاربى أثناء اقامتى فى الاتحاد السوفيتى — من ١٩٣٥ الى ١٩٤٥ — ونشاطى مدة أربع سنوات — من ١٩٤٥ الى ١٩٤٩م — كادارى فى الجهاز المركزى لزعماء الاتحاد الاشتراكى الألمـانى .

— المدارس السوفييتية ، وجامعاتها ، والطلبة ، وأعضاء منظمة « الكمسمول »(١) .

— موسكو وقت اندلاع الحـرب ، والحياة زمن الحرب فى مدينة « كاراجندا » .

— تثقيف القادة الأجانب فى « مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية » .

— اللجنة القومية المسماة « ألمـانيا الحرة » .

— « مجموعة أولبريخت » التى وصلت الى ألمـانيا فى مايو سنة ١٩٤٥م .

— الخطـوات الأولى للسياسة السوفييتية فى ألمـانيا بعد الحرب .

— تكوين نظام دولة القطاع السوفييتى فى ألمـانيا .

— الحزب الوحيد الذى يتولى السلطة فى القطاع السوفييتى ، ويحدد مصير ١٨ مليون نسمة فيه .

لم يكن الغرض من تناول هذه النقاط ، تلبية للبواعث التقليدية المعروفة ، الى شرح جوانب نظام « ستالين » ، وتوضيح السياسة

---

(١) منظمة تعد الشباب — من سن ١٤ الى ٢٦ — اعدادا خاصا يهيئهم للدفاع عن الأيديولوجية الشيوعية . (م . شاملة) .

السوفييتية ، التى لم يعرف عنهما شىء حتى الآن (١) الا النزر اليسير ؛ بل كان الدافع الأول نابعا من الرغبة فى أن أبين للانسان الذى يعيش خارج الاتحاد السوفييتى :

كيف يفكر الجيل الجديد من قادة الحزب الشيوعى ، الذى أعد أفراده اعدادا خاصا فى المعسكر الشرقى !

وماذا يشعر !

وكيف يحكم على الأشياء ، ويفهم الحوادث الجارية حوله !

والى أين يتجه نقده !

لقد حاولت — وأنا مدرك تماما ما أقدمت عليه — أن أقدم صورة المقابلات ، والمناقشات ، والأحداث ، والتجارب التى عشتها ، كما رأيتها آنذاك ، وتصورتها ، وكما شعرت بها ، وفكرت فيها • وأعتقد أن القارىء سيفهم من خلال هذا كله ، معنى الكفر بمذهب « ستالين » بالنسبة لانسان تربى على هذا المذهب ، فهو حكم فى قضية الشك التى اعترتنى سنين طويلة ، وسببت لى من الآلام ، والمضايقات ما ناء به كاهلى • لقد كان صراعا داخليا بين الضمير المتألم ، والمبررات التى تحاول تهدئته ، ولكن عندما وصل المد ، والجزر بين الطرفين الى ذروته ، أغلق باب التراجع ، وعجزت المبررات ، عن كبح جماح صاحب هذا الضمير عن التحرك تجاه الحد الفاصل — وان كان فى أثناء ذلك يعانى من صراع داخلى حاد — الذى يصل من يعبره الى تصور العالم الحر ، عالم لا يسيطر عليه مذهب « ستالين » •

* * *

(١) أى حتى عام ١٩٥٤ م •